

## لعبة الرياح

### يسرى الأيوبي

هل تعرف من أين جاءت طيور الوقوق، وكيف اكتسبت عادتها الغريبة بـ  
تحضن بيضها؟ إن كنت لا تعرف فاسمع هذه القصة:

عاشت الوقوق على سفح جبل الزيتون الذي ينحدر نحو البحر المتوسط،  
وبنت أعشاشها بين أغصان الشجر المعمّر، وكانت كل شجرة تضم عشيرة منها.  
وتناسلت وحضرت بيضها ورقت فراخها وبنات أعشاشا جديدة عبر السنين. وكانت  
الرياح رحاء حنوناً حتى في أيام الشتاء الباردة، فلم تهاجر الوقوق أبداً من ذلك  
الجبل الذي اتخذته وطناً لها.. ولا أحد يعرف تاريخ قدوم أول زوج من الوقوق  
إلى هناك. لقد اخترطت في ذهنها مع نشوء الكون، وكلما سئل أحد منها عن ذلك  
التاريخ أجاب : " أنا هنا منذ الأزل " .

وذات يوم مر بالجبل سائح مغامر، وثبت في قمته دواره رياح! نظرت  
جماعات الوقوق إلى دواره الرياح بدهشة وفضول، ثم لم تلبث أن عادت إلى بناء  
أعشاشها وتناسلها وحضرت بيضها ورقت فراخها.. ولكن صغيراً متھوراً من  
صغرها شاهد الدواره تدور من بعيد فأعجبته اللعبة، وقرر أن يراها عن كثب.  
وفي يوم استجمعت شجاعته واقترب منها بحذر. كانت الدواره رابضة بغموض على  
قمة الجبل وقد سكنت حركتها، ففسها الطائر اليافع مسأ ريقاً بمنقاره، ثم جثم على  
السمم في أعلىها، فدار به: " هاهي ذي أرجوحة لطيفة ". واستدعي رفاقه ليشاركونه  
اكتشافه، فتناولوا اللعب عليها وهم يزقرون ضاحكين، ويستدعى بعضهم بعضاً  
للتجربة: " يا لهذا الطائر الجميل ذي الأجنحة الأربع ما أحلى عشرته! ". ولم يشن  
طائراً مغامراً توبيخ أمه الفلقة في ذلك المساء عن القدوم في صباح اليوم التالي  
جاراً معه أقرانه ليلعبوا مع الدواره.

أخذ بعض حكماء الوقوق المسنين يشكون في أمر ذلك الطائر العجيب،  
الذي لا يطير مثلها ولا ينتقل من شجرة إلى شجرة ولا يسعى في سبيل رزقه ولا  
يأكل ولا يشرب، وزعموا أنه نذير شؤم. لكن كثيرين لم يحملوا ذلك الزعم محمل  
الجد. فشيخ الوقوق رغم حكمتهم، شكاون بطبيعتهم، وهم يحذرون كل غريب،  
وتضيق أنفسهم ذرعاً بالجديد. وكيف تخشى عشائر الوقوق مجتمعة ذلك الطير  
الفرد الكسيح الذي ليس له من عمل إلا أن يدير رأسه يمنة ويسرة؟! صحيح أن  
بعض جماعات الوقوق كانت تعجب بينها وبين نفسها من هذا الطائر الفولاذي،  
وأوجست خيفة من تحذير الحكماء، إلا أنها طوت قلقها بين جوانحها، وعادت إلى  
ما يشغلها من شؤون حياتها. وهكذا استمرت طيور الوقوق على ما فطرت عليه

من غزل وتناسل وحضرن بيض ورق فراخ وبناء أعشاش، ولم تتوقف زقزقتها الطروب أو مشاجراتها الصغيرة فيما بينها. ولو أصغت الوقوف إلى كل ما يقوله الحكماء لتعطلت الحياة، فالكون في نهاية المطاف يتبع قوانينه الخاصة وليس قواعد الحكماء.

أفاقت عشائر الوقوف ذات صباح لتشاهد دوارات أخرى تحتل قمة جبل الزيتون. واحتارت من أمر هذا الطائر. هل يتكاثر بطريقة تختلف عنها، فلا يحضرن بيضاً ولا يربى فرائحاً، بل يلد دوارات جاهزة في حجمه وعلى هيئته؟!

وهرع حكماء الوقوف إلى كتبهم القديمة ينقبون فيها علهم يجدون ما يؤكّد هواجسهم، بينما استمرت العامة في لامبالاتها، تحيي حياتها كما اعتادت، وتذير شؤونها الصغيرة غافلةً عما تعدد لها الأقدار، حتى كان ذلك الشتاء.

شاهدت عشائر الوقوف الدوارات وقد أصابها مس من جنون، وهي ترقص دون أن تنتقل من مكانها أو تغير إقامتها على رأس الجبل. كانت الريح في ذلك الشتاء أبرد وأشد عصفاً من كل شتاء مضى. تخربت أعشاش وهلكت فراخ كثيرة قبل أن تبلغ أشدها. وفسد كثير من البيض، لأنه لم ينعم بالدفء قبل أن يفقس. ورأى حكماء الوقوف فيما حصل مبرراً لمخاوفهم، وربطوا بين تلك الطيور الجبلية الخرساء وبين الرياح. وهذه المرة وجد الحكماء أننا صاغية، وبذلت الشكوك التي تسربت إلى الفوس تلحّ على البعض، حتى قالت جماعة منها: "سنذهب في الغد إلى الطائر الدوار الذي قدم في البداية إلى ديارنا في وفد ونطلب إليه أن يغادر وفراخه أرضنا". وكان طائرنا المغامر قد كبر وصار حينذاك راشداً، عاقلاً، فصيح اللسان، سديد الرأي، فقرر الوفد أن يصطحبه معه.

أصغت الدواراة الصماء إلى وفد الوقوف وقد سكنت سكوناً مهيباً معتصمة بحصن أزلي. وارتبت الوقوف من هذا اللقاء المتعجرف البارد، وتلعمت قليلاً، إلا أنها استجمعت أنفاسها، وعاودت الشرح مرة أخرى. والحقيقة أن الوقوف لم تقصر أبداً في الشرح. فقد تكلمت وتكلمت، بتهذيب الحق يقال ولكن بإصرار، وتقصدت بمطلبها. وحتى تتغلب على فترات الصمت المحرجة التي أعقبت حديثها كانت تعادل الكوة مرة وأخرى، وتحاور بعضها بعضاً عند قاعدة الدواراة بمنتهى الدبلوماسية والكياسة. ولكن الوقوف لم تفلح في إخراج الدواراة عن صمتها الساخر، فشعرت باليأس والإحباط والمهانة، وأخذت تلمثم أغراضها استعداداً للعودة، وهي تجر أذيال الخيبة. وفجأة حصلت معجزة صغيرة!

هبت الريح الشمالية، فطققت الدواراة ودار السهم في أعلىها محدثاً أزيزاً. وسمع لانزلاق الريح على سهم الدواراة همس قدربي. فرفعت الوقوف أعينها حابسة أنفاسها نحو مصدر الصوت، وهي غير واثقة إن كان ما تسمعه صوت الدواراة أم صوت الريح:

- ما الذي يضايقن من وجود الدوارات يا طيور الوقوق؟

- إنها تجذب الرياح إلى أرضنا.

ضحك الهمس وقال:

- إن كانت تجذب إلىك الرياح كما ترعن، تكثر الأمطار، وينتعش الشجر، وتمتلئ حبات الزيتون بالماء، فيكون موسمك غنياً وحياتك ناعمة رخية. وهي مسلمة، حتى أن صغارك تأتي وتلعب على أذرعها. فلم القلق؟

واحتاج وفد الوقوق واندفع يعرض قضيته بحماس:

- الرياح أصبحت أقسى علينا وأشد عصفاً مما نحتمل، ولقد آذتنا، فأفسدت بيضنا وقتلت فراخنا وهدمت أعشاشنا.

- لكن الرياح هي الرياح، فتارة تكون نسيماً علياً وطوراً إعصاراً. هذا من طبيعة الوجود وقانون الأشياء. وحين تعصف الرياح حتى الدوارة تعاني حتى لتكاد مفاصلها أن تنفك. على كل حال فالدورات كما تعلمون مثبتة في الأرض ولا تستطيع مثلثن الهجرة، فإن كان وجودها يضايقن فلماذا لا تجدن لأنفسكم مأوى في مكان آخر؟!

وثار غضب وفد الوقوق، وأخذت الطيور ترف بأجنحتها مهددة فعلاً همس القدر:

- أيتها الطيور الحمقاء . إن الريح سيدة عجوز ذات عناد وإصرار عجيبين، ولا فائدة من تحديها.

سكنت الطيور، وتتابع الصوت بنبرة فيها خطورة:

- سأكشف لكن هذا السر، إن الدوارات بناة عمومتكن. وقد عشن على هذه الأرض منذ قديم الزمان، حتى حلت بهن لعنة القدر، ولا تبدل للأقدار. فإن أحسنتن التصرف فسيعم الخير الجميع، ولتكن أول منتفع به، وإلا ستتحل بكل كارثة.

وعصفت ريح الشمال فجأة على غير عادتها في مثل هذا اليوم الصيفي مجبرة جمع الوقوق على الانقضاض. وعاد الوفد ليروي ما حصل معه، فنبيلات الطيور ولم يقر لها قرار منذ ذلك اليوم، ولم تستطع الانفصال على رأي واحد فيما يجب عمله. وفي هذه الأثناء كانت دوارة الرياح تتکاثر وتلعب مع الرياح على رأس الجبل لعبتها المشبوهة.

\* \* \*

منذ أن سكنت الرياح الجنوبية ودخلت في سباتها الطويل صار المتوسط ملعاً للرياح. المتوسط مركز العالم والنبع الذي توسط الجهات الأربع وخطوط الطول والعرض، وامتدت شواطئه لتحتل خمس قارات وتحاذى خمس محيطات، عقدة النظام الكوني، صار ملعاً للرياح. وانهار التوازن الذي بدا أبداً ذات يوم، فاندفعت الرياح بعنفها وأهوائها الصاخبة تتناوش وتتصادم في رقصة شيطانية لانهاية لها. ريح الشمال وبناتها السبع، ورياح الغرب والشرق، مع كل ذراريها ومواليها من رياح بين بين، رياح محلية وإقليمية وقارية ومحيطية، رياح عابرة وأخرى سائدة.. رياح من كل الأصناف أفلت من عقالهن. وكلما ارتفع الضغط الجوي في منطقة وجدت الرياح لها مفرجاً في منطقة ضغط منخفض مجاورة. لم تعد الرياح تقفع أبداً، وتوحدت وجهاتها في طلب القوة. فلا ريح ممطرة سقاء، ولا ريح جافة تتضج المحاصيل، أو موسمية تسوق أشرعة السفن إلى مواني الأمان، بل ريح عاصفة تفيض الأنهر والينابيع وتغرق الأرض، ورياح لافحة تحرق الزرع وتوسيع حدود الصحراء، وأعاصير هوجاء تقلب السفن وتدمير الموانئ. صار النسيم العليل محترقاً في عالم الرياح، وكلما ازدادت الريح غطرسة وقوة عظمت وازدادت مهابة وسادت على الآخريات. وانطلقت الرياح في سباق محموم في مضمار خط النهاية فيه يركض أمام المتسابقين!

بساتين البرتقال والزيتون، غابات الدلب والأرز، ودغيلات الحور والصفصاف لم تعد تعرف معنى السكينة. سهول القمح والأقوان أصبحت سهول الرياح الجنونة.

\* \* \*

في فترات الهدوء القصيرة التي تتوسط عاصفتين وجد طائرنا المغامر متسعًا من الوقت لشئون قلبه الفقي. وعرفت الجروд القريبة وضفاف النهير الرفراق ودغلة العنبر البري لقاءات حبه الأولى السرية. وكم من مرة استقبلت السماء الممتدة فوق قمم الحور العاشقين الملحقين للذين يحلمان بالمستقبل ويشعران أن العالم ملكهما. كانت لحظات السعادة تلك تفر مسرعة، محاصرة بين العواصف والتلال الصارمة. لكن العاشقين كانا يجدان دائمًا وقتاً وبينيان مرأة بعد أخرى صورة وردية في خيالهما لحياتهم المقبلة. لقد سكنت تلك اللحظات وتلك الأماكن العزيزة قلبه، وصارت منبعاً للأحلام التي ستشرق بين الفينة والأخرى على حياته القادمة التي لن تعرف الكثير من السعادة.

مر شتاء قاس آخر وتلاه شتاء أقسى منه، والعواصف تشتد ونقطلع الأشجار من جذورها، وتقوض أعشاش الوقوق، وحبات البرد تنقر رؤوسها، وندف الثلج

تجمد أطرافها. وأخذ الجميع يتربون متوجسين. تنبأ الحكماء بأن جائحة هائلة آتية، وانشرت النبوءة كالنار في الهشيم، ورددتها الجميع. إلا أن أحداً لم يعرف ماذا سيكون مصير الطير في هذا اليوم العظيم، أو كيف سيمعن الكارثة. وهكذا استسلمت العامة العاجزة لتيار الحياة اليومية تاركة مصيرها للأقدار تقرره.

في ليلة اليوم الموعود سكنت الريح سكوناً موحشاً، وهدأت الدوارات هدوءاً مريباً. وعند الفجر كانت نذر الإعصار الكبير تجتمع في الأفق. غطت السماء سحب سوداء كثيفة، تدفعها بإصرار رياح ما تفك تزداد عنفاً. والرذاذ الكثيف ما لبث أن تحول إلى وابل من المطر، بينما أخذ البرق يضرب الأرض دون توقف، يعقبه هدير رعد يصم الآذان. كانت الأشجار تهتز بعنف تحت وطأة الرياح وتنطواح يميناً وشمالاً، وانقض البرق على كثير منها مدمرأً إياها ومشعلاً فيها حرائق ما لبثت أن انتفأت بتأثير المطر. وما عفا عنه البرق من الشجر قصمتها الرياح الجبار. وكانت أكثر الأشجار عرضة للدمار هي أكبرها وأضخمها، وكلما هوت واحدة انطلقت منها عشرات الأسراب من الوقوف طالبة النجاة، تسوقها أمامها الرياح التي لا تعرف الرحمة. وارتقت بعض الصيحات:

- إلى الدوارات المسؤومة التي جلبت الكارثة إليها الشجعان! لنقض عليها، فتتوقف العاصفة، وننقذ أنفسنا وأهلنا من التهلكة.

واندفعت من هنا وهناك أسراب صغيرة مرتبكة تقصد الدوارات، وهي لا تدري بأية وسيلة ستقضى عليها. ووجد طائرنا الشهم نفسه في إحداها يتقدم بعناد باتجاه الدوارات، والريح تطروح به ورفاقه مرة بعد أخرى وترمييه بعيداً، فيتجمعون ويعاودون بإصرار مدهش! إلا أن الرياح كانت تسد على الأسراب المهاجمة المنفذ، وتعاكسها، وتهشم أجنحتها. فسقطت بعض الطيور، وتشتت الآخريات دون أن تصل إلى غايتها.

رفع طائرنا بصره نحو قمة جبل الزيتون، فرأى مشهداً حبس له أنفاسه: كانت الأذرع الصغيرة اللطيفة للدوارات، التي تأرجح عليها ذات يوم في طفولته، قد التحمت بالبرق القادم من السماء، فشكلت أذرعاً أخطبوطية معه ممتدة حتى عنان السماء، تدور على مهل كأرحبة طواحين شيطانية عملاقة! كانت هذه الكائنات الخرافية تدور بالغيوم المتلبدة ثم تطلقها أعاصير لا تلبث أن تلتحم بجسده الإعصار الهائل الذي وصل حينئذ إلى جبل الزيتون كقدر لا مفرّ منه. فكر عصفورنا بموعد غرامه الذي أخلفه اليوم، وبحبيبه وما عساه حل بها. وأحس بقلبه يعتصر ويغوص في أعماقه، وطفرت الدموع من عينيه:

- سأذهب لإنقادها حالاً.

هذا ما فكر به وأراد فعله، ولكن الوقت كان متاخراً جداً للقيام بأي أمر. في تلك اللحظة اجتاحه الإعصار، وابتلعته دوامة جبارة. أحس بالخطر وهو يدور، ومرت أحداث حياته أمام عينيه كشريط سينمائي:

- هل هذه النهاية؟ إن الموت لا يبدو مرعباً كما يتصوره المرء..

كان هذا آخر ما دار بذهنه قبل أن يغيب عن الوعي.

\* \* \*

غطت السماء أسراب الورق في رحلة هجرتها الطويلة. ونظر كل من كان على الأرض إلى السماء بأسى وتوجس: لم تكن الورقة طيوراً مهاجرة طوال الزمن الذي تعرفه الذكرة، حتى بدا التصاقها بأرضها قانوناً من قوانين الطبيعة، وخروجها كأنه انتهاك لهذه القوانين. وانتهاك قوانين الطبيعة ينذر بشر يعم.

فتح طائرنا عينيه ليجد نفسه في مكان غريب. وفي بادئ الأمر لم يفهم شيئاً، وتساءل كيف عساه وصل إلى هذا المكان، ثم لم يلبث أن تذكر: إذن فالإعصار لم يهلكه، بل حمله ورمى به بعيداً في هذه الأرض الغريبة.

منذ ذلك اليوم لم يجتمع الطائر الغريب بحبيبه أبداً. سأله الجميع، لكن أحداً لم يعطه جواباً شافياً. وطار بين قبائل الطير التي نزلت جماعات الورق المهاجرة في كفها حتى كلّ جناحه. وفي كلّ مرة لاحت له فيها بارقة أمل كان يندفع دون إبطاء في رحلة جديدة، والسوق يغمراه، باحثاً عن حلمه الضائع. ومرة إثر أخرى كان يصطدم بالخيبة والمرارة، ومع ذلك يعاود الكرة من جديد. قيل له ماتت، فلم يشا أن يصدق. وذات يوم قالوا له بأن أحد الطيور قدم من جبل الزيتون حديثاً، وأنه شاهد محبوبته هناك في دارها، فشدّ الرجال إليه، لم يكن القاسم الجديد قد التقى بها شخصياً، لكنه سمع من أحدهم بأنها ما زالت تعيش في الأرض التي تعصف فيها الرياح، وهي غير راغبة في الرحيل. رغم الشكوك التي ساورته في البداية، أقنع طائرنا نفسه بأن هذه هي الحقيقة:

- نعم، لا شك أنها الحقيقة. عصفوري الجميلة ما زالت تعيش في جبل الزيتون، تنتظر عودتي لأخلصها من محنتها. لكن جبل الزيتون كان بعيداً جداً. وفي كل يوم يمضي كان الجبل الأخضر يزداد بعداً. لقد نأى موطنه عنه، وسدّت السبل إليه، حتى أوهنه شوقي واليأس، وفي بعض الأحيان، حين يقهره عجزه، كان يحدّ عليها ويكرّهها:

- لا شك أنها وجدت غيري ونسيري.

ولا يمضي وقت طويل على خاصمه لها حتى يعود إليها من جديد. أخذ هو يكبر في السن، لكنها بقيت في مخيلته يافعة، كما عرفها في لقاء حبه الأول، تحلق هناك فوق جبل الزيتون البعيد. لم ينس الطائر الغريب محبوبته أبداً، وهل ينسى المرء حبه الأول؟ لكن الحياة تمضي ولا تتوقف، ويرسم القدر مصائر الجميع من الطير حتى البشر.

تروج الطائر الغريب لأنه كان عليه أن يقوم بهذا الأمر يوماً ما. تلك سنة الحياة التي تسير عليها الطيور جميعاً. كان حلمه قد شبّ وبدأ بعيد المثال. وفي يوم رأى في أنتى ما ذكره بحبه الأول فأقدم على الزواج. لكنه اشترط على أليفته أن لا يبنيا عشاً حتى يعودا إلى موطنهما في جبل الزيتون. كان طلباً غريباً وصعباً، ومع ذلك قبّلته، فلم يكن العثور على قرين في تلك الأيام القاسية أمراً هيناً، ومنت النفس بأن تغير رأيه بعد القرآن.

فقدت جماعة الحقوق المهاجرة القدرة على بناء الأعشاش كما كانت تفعل في وطنها. وكانت تتظر إلى الطير في دأبها، تعجن الطين بالقش وتترعرغ فوقه لتصنع أعشاشها، نظرة الزهد والحنين. إنها لا ت يريد أن تبني أعشاشها إلا في موطنها في جبل الزيتون، الذي تركته مرغمة كارهة.

صارت أنتى الحقوق تضع بيضها في العراء، فتختطفه الجوارح والزواحف، وتحزن لفقدده. عبثاً كانت تلح على أليفها أن يبنيا عشاً ويستقران. كان الطائر المهاجر غارقاً في أحلام يقطنه، يعيش في عالم آخر بعيداً عنها، غير دار بشقائهما وما تعانيه:

- إن ذريتنا تهلك. سيأتي يوم ينفرض فيه جنسنا، إن بقينَا على هذا المنوال.

- كيف نتخلى عن جبل الزيتون دائم الخضراء؟ أتركه لدواره الرياح الغربية تمنعنا من العودة إليه؟

أخذت الحقوق الأنتى تحتم على الحياة لتتقذّب بيضها وفراخها، وأصبحت أكثر تناسلاً وأكثر هداً لنسلها من كل الطيور. وأفعم قلبها بالنقمّة على كل الطيور ناعمة البال، مستقرة الحال، ضعيفة الإحساس بالخطر الذي يتهدّها، وينقضّ عليها في كل وقت. افتقدت في أعماقها بأن الطيور جميعاً أساءت إليها وتنخلت عنها: الدوري وقبّة المروج وقبّة الشجر وشوالات الصفاصف وعصفور الشوك وأبو الحناء والصقارية والخطاف والحمام وأبو منجل.. جميع الطيور نفتها، وسوزرت أعشاشها دونها بالأشواك. فقدت على الجميع: على الطيور وعلى دوارات الرياح والرياح من كل فصيلة ولون، بل على قرینها الذي أقصاها عن عالمه، وتركها وحدها تصارع وتشقى، وعلى فراخها التي ما تنفك تغفر أفواهاً

قرمزية لا تشع. كانت تزاحم باقي الطيور عند مصادر الرزق وعند نبع الماء، وتتشاجر مع جاراتها، وتتقر فرراخها، وتسلق قرينه بسانها الحاد طول النهار. لقد أصبحت طائراً لا يطاق.

في بعد ظهر يوم بارد كانت أنثى الوقوق ترتجفجائعة، وهي تحضن بيضها الذي لا يعرف دفء الأعشاش فلا تغادره كي يقس سليماً معافى. ولكنها في تلك الليلة التي لم تسكن فيها زمرة الرياح توغرت غضباً لحالها، فحملت بيضها واحدة إثر الأخرى، فوضعت واحدة في عش الدوري وأخرى في عش الشوالة وثالثة عند القبرة ورابعة عند عصفور الشوك، وهكذا حتى أتمت انتتني عشرة بيضة وضعتها في اثنى عشر عش. وزاعت أنثى الوقوق بيضها في الجهات الأربع على اثنى عشر قبيلة، تتحين لحظة تغيب فيها الطيور عن أعشاشها. ولما عادت تلك الطيور لم تدر بما حدث، وجلست إناثها على البيض متباوبة مع ذكورها، كما تفعل عادة، وهي لا تشعر بأمر البيضة الداخلية!

منذ ذلك اليوم اكتسبت طيور الوقوق تلك الصفة الذمية. صارت تطير متسللة، بعد الظهر عندما يحين موعد مخاضها، إلى جيرانها. فتضيع بيضها في أعشاش الطيور الأخرى، التي تكون غائبة حينها، تسعى لأرザقها: في كل عش بيضة واحدة، تشبه بشكل مذهل بياض الطير الحاضن!

دفعت غريزة البقاء الوقوق إلى تطوير سلوك انتهازي كفاء يضمن لها الاستمرار. ونميل نحن البشر المتمسكين عادة بالصطدات الأخلاقية، والمحبين للحكم على الآخرين وليس على أنفسنا، إلى الاعتقاد بأن ذلك السلوك نوع من اللؤم الدنيء من جانب الوقوق، أما الوقوق نفسه فعلى الأرجح أنه يبرر سلوكه بأنه ضرب من الانتخاب الطبيعي الذي يضمن البقاء للأصلح!

فقتست بيضة الوقوق في عش قبرة الشجر قبل أفران عشها. وحالما خرج الصغير الأعمى العاري إلى النور أخذ، وبألهول ودون علم مسبق كأنما بوحي قدرة سحرية شريرة، يدفع بحمية ونشاط بيض القبرة خارج العش مستغلاً غياب أبيه بالتبني! أخذ الصغير الدخيل يدفع البيض واحدة إثر الأخرى بمؤخرته بأساط جناحيه نحو الخلف، ليستعين بهما في عمله، وهو يتسلق جوانب العش مع حمله التقليل ورأسه للأسفل بعزم وإصرار مدهشين، حتى أخلى المكان لنفسه. فجلس بوداعة منتظراً عودة أبيه بالتبني وهو مطمئن إلى خلو الساحة من المنافسين الذين كانوا سيزاحموه على الغذاء والرعاية!

ولم يكن سلوك فراخ الوقوق في أعشاش عصفور الشوك والدوري والشوالة أفضل بكثير من سلوك أخيها الذي ربته القبرة. جعل فرخ الوقوق الذي فاق أفرانه عمراً وحجماً حياتهم جحيناً متواصلاً من التجويع والأذى: يدفعهم بجسمه الضخم، ويمشي عليهم، وتذهب أغلب الحشرات التي يحضرها الأبوان

لإطعام صغارهما إلى فيه الشره الأقرب دائمًا والأشد اتساعاً، حتى هلك أشقاءه جميعاً بعد أن أضناهم الجوع.

أما عصفور الشوك فكان ينظر بهلع إلى الديناصور الصغير الذي ينمو في عشه ويأكل دون توقف. وكاد الأبوان أن يهلكا إرهاقاً، وهم يبحثان عن طعام لفراخهما الذي ظل ينمو حتى فاق أبواه حجماً عدة مرات، فصارا مضطربين للوقوف على ظهره ليتمكنا من رزق ما اصطاداه من حشرات في فيه الذي لا يشبّ! حتى هذه الساعة لا يصدق عصفور الشوك كيف استطاع تعليم ديناصوره الصغير الطيران، وأقنعه بمعادرة العش، فرحل ولم يعد منذ ذلك الحين! لكن الأبوين المسكينيين ما زالا يرتدان لمجرد التفكير بإمكانية عودته بزيارة مجاملة يوماً ما.

أما الشوّالة فقد فرحت بذلك النسل الممتاز، وأخذت تدلل الفرخ الذي صار ينمو نمواً مفرطاً وتزقه قبل فراخها. كان ينقر إخوه وينزع منهم غذاءهم من الحشرات والديدان، لكنها ظلت تتظر إليه بإعجاب لقوته وجماله ولبلزْ أقرانه في صفاته. وأصبح لديها أعزّ من فراخها، التي أخذت تحتاج على هذه المعاملة المجحفة، وتهدد بترك العش قبل أن يشتت عودها. ولما قامت مشادة بين فرخ الوقوق وأحد أفرادها ذات يوم نقرت فرخها مؤدبة إياه حتى كاد يشرف على الهلاك، وهي فخورة بأنها أمينة لقانون الطبيعة في بقاء الأصلح. وفي يوم، أثناء غياب الشوّالة، تسللت أفعى إلى العش. وبنظره محملة واحدة اختارت وجتها لذلك المساء. انقضت على الفرخ الأكبر والأسمى وابتلاعه ثم انسلت متعددة. وعندما عادت الشوّالة، وجدت أن فرخ الوقوق الأثير لديها قد اختفى!

أما أبو الحناء وقرinetته فإنهم نظراً بشك إلى تلك البيضة الكبيرة في عشهما. قلبت أم الحناء البيضة ونقرتها برفق، ثم حضنتها مع بيضها وهي في خوف منها. ولم يفارق الشك الأبوين حين فقت البيضة وخرج منها فرخ الوقوق. وأخذوا يعاملانه معاملة قاسية ويحملانه أثقل الأعباء.

أما الفرخ الذي عاش في عش الخطاف المبني فوق المدخنة فقد لقي من شطف العيش ما لقي. كان الدخان يعمي عينيه، والهباب يغطي ريسه، وصغار البشر يلقون راحته بالعصي وينحسونه ويلحقونه بها. وذات يوم ذهب مع صغار الخطاف لينقر الثمار الناضجة في البستان المجاور، فأصابه مقلع الناطور ولقي حتفه.

أما الحمامـة فلم تعامل فرخ الوقوق بقسوة ولم تميزه، فعاش في كنفها حياة متوازنة..

في أحد الأيام فوجئت أم الحناء عندما عادت إلى عشها بأنثى الوقوق تبيض فيه!.. فجثمت على غصن قريب تغطيه أوراق الشجر، وأخذت تراقب خفية ما يجري. بعد أن وضعت أنثى الوقوق بيضتها، بدأت تدفع إحدى بيضات أم الحناء خارج العش، فهوت على الأرض وتحطممت، وبقي في العش نفس عدد البيضات التي وضعتها أم الحناء! انقضت أم الحناء على أنثى الوقوق وتعركتا، فنقت كل واحدة ريش الأخرى. وما لبثت أنثى الوقوق أن هربت بالرغم أنها أكبر حجماً من أم الحناء، لأن شعور الذنب كان يعذبها و يجعلها جبانة أمام الأطياف الأصغر منها حجماً.

طارت أم الحناء إلى عشيرتها تستجد بها، فجاءت طيور أبي الحناء في سرب تزيد أن تتفصّل انتقاماً على كل من ينتمي إلى عشيرة الوقوق التي تعيش في كنفها، والتي اختباً أفرادها تجنباً للصدام. ولما لم تجد طيور أبي الحناء أحداً عادت إلى أعشاشها وتفحصت بيضها بتأنٍ، وحملت بيض الوقوق الذي اكتشفته ورمته من الأعشاش، فوقع على الأرض وتهشم. فثارت ثائرة الوقوق، وخرجت من مخابئها، وانقضت على أبي الحناء التي تزيد إبادتها أو طردها، وأخذت في الدفاع عن نفسها. وقامت بين الوقوق وأبي الحناء معركة دامية، تساقطت فيها طيور كثيرة من كلا الطرفين. ولم تتجدد طيور أبي الحناء في طرد الوقوق، فبعضه معظمها حيث كان، لا يغيب إلا ليعود.

استمرت عشيرتنا الوقوق وأبي الحناء بالعيش معاً ولكن على مضض، وكل فئة تحمل في قلوبها من الأخرى ولم تستطع طيور أبي الحناء أن تتغلب على مشاعر الغضب التي تتعمل في نفوسها من طيور الوقوق. وكانت تهاجمها على الدوام، وتتهمها أشنع التهم، وتحرض أجناس الطير عليها. وتتسافر شرقاً وغرباً وهي تحمل على أجنحتها أقاويل غير مثبتة مثيرة حولها الكراهية والحقد. قال أبو الحناء الذي وجد سبباً وجيهأً يبرر به قلة شهامتة:

- ألم أكن على حق حين منعه من أعشاشي وسورتها بالأشواك؟ ومع ذلك ربّيت فرخاً للوقوق وزقته وعلمه الطيران. ورددت الطير وقد ذكرت كل واحدة منها نقيبة للوقوق:

نعم لم يعرف جنسنا طائراً أكثر منه لؤماً وغدرأً. كانت دوارة الرياح على حق حين خربت أعشاشها وطردتتها من ديارها.

لطمت أنثى الوقوق، التي أثارت تلك الموجة من الكراهية بسوء سلوكها، وجهها بجناحيها، وقالت لأليفها:

- أنا السبب في كل ما جرى. لعل الله يغفر لي، إذ دفعوني غفلة الطير ولا مبالاتها إلى اليأس. لم يصح إلى أحد حين استجذت بالطيور لإغاثتي، ولم يرد على الظلم الذي حاقد بي أحد.

فتهدى الطائر المهاجر وأجاب بأسى:

- هذا مصير من لا وطن!

وأغلق عينيه، وحمل بأرض صباحه، وبمحبوبته الأولى، وبطيور الوقوف التي لم تهاجر، وما زالت تبني أعشاشها هناك، وتتحدى الرياح.

طارت كلمات الشاعر الذي علمته السنون الحكمة فسمعتها طيور الوقوف في كل مكان، واشتد الحنين بها إلى جبل الزيتون، موطن أجدادها، فهناك فقط تعيش حرة كريمة، وتزول عنها اللعنة التي نزلت بها فتوقفت عن بناء أعشاشها. ولكن أين السبيل إلى ذلك؟

تحولت جماعة من الوقوف إلى طيور جارحة! وأعدت خططاً تكيد بها لدورات الرياح في غفلة من العيون، فتضع الحصى والرمال في محاور الدورات، فتوجعها وتعيق حركتها وتحرمها الاستقرار والعافية، إذ تلهب مفاصلها وتفقد إلى حين قدرتها على الرقص في كل الاتجاهات وهي تدور على محاورها. كانت طيور الوقوف الجارحة تعود من عملياتها لتملأ الدنيا ضحاجاً عما فعلته بالدورات والأذى الذي سببته لها، وراح تحشر باقتراط نهاية الدورات وعودة الوقوف إلى ديارها. وصارت أعداد متزايدة من الوقوف، من مشارب واتجاهات مختلفة، تتحول إلى طيور جارحة: كثير منها كانت تؤمن بإخلاص بأن ما تفعله هو درب آلام تعبره بصمت وصبر لتصل إلى موطنها، وبعضها اعتبرت هذا العمل مهنة تعانش منها وتنسعن بها على تكاليف الحياة! أما الدورات فكانت لا تلبث أن تراسب ما تتصدع منها وتنتفعى، وتعود إلى سابق عهدها جاذبة إليها الرياح من كل الأصناف.

\* \* \*

عرف جبل الزيتون الرياح المتناوبة كلها. فمنذ أن سقط بيد الإعصار الكبير أصبح الجبل العتيق فندقاً لجميع الرياح، التي بدأت تشكو ضيق الحيز الذي تهبت فيه وتريد مجالاً أوسع لها.

تمددت الريح الغربية على طول ساحل المتوسط طاردة كل الرياح أمامها غير عابئة بغضبها. ريح الشمال وبناتها السبع وريح الشرق والرياح بين بين

زمجرن محتاجات، ونطحن برأوسهن في كل الجهات، يردن النفاد، إلا أن ريح الغرب أبى أن تلملم نفسها وتفسح لهن مكاناً. سيطر على الريح الغربية هاجس وحيد: أن تحتل العالم بأسره، وتضع حدأً لفوضى الرياح السائدة فيه. صارت تحلم أن تلف الأرض كلها من غربها إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها بإعصار واحد هائل، تدوم فيه الرياح جميعها وفق مشيئتها هي، وتنصاع جميعها لإرادتها وحدها:

- لقد انتهى ذلك الزمن الذي كانت الرياح تسرح وتمرح فيه في العالم على هواها دون رقيب ولا حسيب.

وفي هذا الاضطراب، الذي أثارته هذه الأطماء والأطماء المضادة، كانت تقويم التحالفات بين الرياح وتتفرط. واتبع الرياح، لتحقيق مأربها، أكثر الأساليب تبايناً. فكانت تهادن وتثنين تارة، وتضرب بقسوة تارة أخرى، وتراءغ وتمكر دائماً.

قالت الريح الغربية متهكمة:

- متى كان بيننا، نحن الرياح، عهد أو ذمة. قانوننا كان منذ الأزل قانون القوة. وبما أنني أنا الأقوى اليوم فلاستمتع بقوتي، وأخذ راحتى، وأتمدد على طول قامتي. وأردفت بلهجة ناعمة:

- كن على ثقة يا معاشر الرياح بأنني سأكون كريمة مع من تلتزم حدودي وترضخ لأمرى!

كظمت الرياح، التي استنزفت قوتها في المبارزات، غيظها، واكتفت بالزمرة مننية النفس بأن ينقلب الميزان وتتغير الأحوال في مقبل الأيام.

\* \* \*

كانت طيور الواقع تصغي إلى أحاديث الرياح وتشاور فيما بينها:

- لماذا لا نطلب حماية الريح الغربية، فتصنفنا من دوارات الرياح؟

كان سؤالاً طرحة بعض منها، وهو يثير بدوره سؤالاً آخر: هل الدوارات هي التي تسيطر على الرياح، أم أن الرياح هي التي تسيطر على الدوارات؟ والإجابة على هذا السؤال محيرة! فإذا كانت الدوارات هي المسيطرة، لم يفده الواقع أن تحميها الرياح. وإن كان العكس، فالذى الذي أصاب الواقع كان بسبب الرياح، وما الدوارات إلا أدوات منفذة لها. فهل يحکم المرء إلى خصميه؟

وبما أن الوقوف لم تشاً أن تصغي حينذاك إلى هذا السؤال، فقد اتفقت فيما بينها أن يذهب وفد عنها إلى الريح الغربية، يطلب منها أن تكون حكماً بينها وبين الدوارات. تحدث وفد الوقوق بإطناب وبلاجة:

- أيتها الريح الغربية المجلة، يا أقوى الرياح. جئناك نشكو ظلامتنا، لعلك تتصفينا. نالنا الأذى من وجود دوار الريح وذريتها على جبلنا. كانت تدور كما لو أصابتها جنة، وأثارت الريح ضدنا، فاقتلت الشجر الذي بنينا عليه أعشاشنا، وهشممت بيضنا وقتلت فراخنا، وأجبرتنا على الرحيل والتشرد في الأرض. كنا عشيره مسالمه أيتها الريح الغربية المجلة. كانت الشمس قبل مجيء الدواره تسقط بحنان ودفء علينا، وكانت بيادربنا ملأى بالحب وحقولنا غنية، وكرومنا يانعة، وثمارنا ناضجة شهية، وزيتوننا دائم الخضره، أما اليوم فإن كتل الإسمنت الذي تزرع فيه الدوارات أطراها حلت مكان الساحات الخضر التي كانا نجد فيها رزقنا. وهي تتكاثر وتثير الريح. لكن الريح لا تؤثر عليها لأنها تدور معها. ونحن أصبحنا لاجئين نعاني شظف العيش والمهانة، ولا نقوى على بناء أعشاشنا. فساعدينا أيتها الريح المنصفة على طرد الدواره وذريتها من أرضنا، فنعود إلى ديارنا، ونشعر بالسلام والطمأنينة على أرضنا بين قومنا. فأنت أقوى الريح، وأكثرها تأثيراً على الدواره.

ابتسمت الريح الغربية وهي تطوي ساقاً على ساق وقالت:

- سأدرس الأسباب التي تجعل الدوارات تتصرف بذلك الشكل العدواني على جماعة الوقوق.

الله وحده يعلم لماذا طلبت الريح الغربية هذه المهلة لدراسة الأسباب. فالريح كانت تعرف كل شيء عن طيور الوقوق ودورات الريح، وهل تخفي على الريح خافية؟ كانت تعلم كل شيء عن الوقوق المقيمة والوقوق المهاجرة والوقوق التي تحولت إلى طيور جارحة. ومن تصدق من الطيور ومن تعادي. وهي تعرف كل شيء عن الحزادات التي نشأت بينها وبين الطيور التي هاجرت إلى ديارها. وتعرف عن حنين الوقوق للعودة إلى جبل الزيتون، ذلك الحنين الذي يكبر ويصبح جارفاً كلما ازدادت مصاعبها، والذي أخذ يتحول إلى يأس عند بعضها على مر الأيام. وكانت تعرف عن الوقوق المهاجرة التي تعيش في جزر متفرقة، ونادرًا ما تجتمع، فإذا اجتمعت تفرق كل منها ومصالحها. وتعرف كيف ولدت النعمة وترعرعت في صدور الأجيال الجديدة، فهي تارة ناقمة من عدالة السماء التي تخلت عن شؤون الأرض، وتتركتها لجور الريح وهوس الدوارات، فأشاحت بوجوهها عن السماء. وحوّلتها صوب الأرض. وطوراً ناقمة من عدالة الأرض وظلم ذوات القربى، فأشاحت بوجوهها عن الأرض وحوّلتها شطر السماء. وتعرف أيضاً كيف تتفاقم النعمة فينبع العنف الذي يرعب الطير، فتخشاها وتخاف منها على نفسها. كذلك تعلم بأمر الجيل الجديد الذي نشأ في ذات الوقت

مغرقاً في ذاتيه ولا مبالاته. بل تعلم أيضاً كيف توقفت الوقوف عن بناء أعشاشها، وصارت ترفض حضانة البيض، وتترنّع اللقمة من أعشاش الطيور لا من الطبيعة.

قال الطائر النبي، وهو على فراش موته:

- يا عشر الطيور، ستعود طيور الوقوف إلى ديارها عندما تستيقظ ريح الجنوب. واستطرد:

- يا عشر الطيور. إن الرياح تحركها أجنحة الطيور. وكما تلتزم الجداول الصغيرة لتشكل الأنهر العظيمة، كذلك تتصهر الخفات الضعيفة لتخلق الرياح الجبار.

تمطت الريح الغربية وقالت :

- سريري ضيق علي!

وركلت بقدمها جبل الأرز، فاهتز الجبل وانشق نصفين، وابتلعت الهاوية الشجر العريق والأعشاش والطيير. ونجت أسراب طارت في كل اتجاه، وهي تشتم وتلعن وتنهم طيور الوقوف الجارحة بأنها سبب نكبتها. ولما سئلت كيف تجزم في هذا الأمر قالت:

- أجل إنها تذهب إلى الدوارات، فتضع في مفاصل مراوحها حبات الرمل والحسى، فتشير لديها جنون الرقص، الذي يهيج بدوره الرياح المدمرة!

قالت الريح الغربية لوفد الوقوف الذي عاد إليها يطلب العدل والإنصاف:

- إنني بعد دراسات ومشاورات، ولدي شهود عيان على ما أقول من مختلف طيور المنطقة، وجدت أن جماعة الوقوف هي المعتدية على الدوارات! لأنها لا تتركها تعيش في سلام على جبل الزيتون، الذي هو موطن أجدادها..

\* \* \*